مبادئ وخبرات ثورية

أوراق تثقيفية يصدرها مركز الدراسات الاشتراكية
العدد الثالث مارس ٢٠٠٦ الثمن ٢٥ قرشاً

لماذا الدول الاشتراكية لم تكن اشتراكية؟

مركز الدراسات الاشتراكية
٢٠٠٦

- **اسم الكراس: لماذا الدول الاشتراكية لم تكن اشتراكية؟**
- **الناشر: مركز الدراسات الاشتراكية**
- **الطبعة الأولى: مارس ٢٠٠٦**

فـهـرس

الخطأ الروسي	٤
الثورة في العالم الثالث	٩
الأحزاب الشيوعية الغربية	١٢

الخطأ الروسي

لاشك أن أكثر الانتقادات التي توجه إلى الاشتراكية قوة هو مصير الثورة الروسية، فدائما ما يقال للاشتراكيين "ارجعوا إلى ما حدث في روسيا" وتلك بالفعل قضية بحاجة إلى رد، فأي عقبة تلك التي تعترض سبيل ثورة عمالية أخرى حتى لا تنتهي بطاغية كما حدث في عهد ستالين ؟، للإجابة على هذا السؤال علينا أن نلقى نظرة على الظروف التاريخية التي واكبت الثورة الروسية.

كانت روسيا في بداية القرن التاسع عشر دولة زراعية بدائية متخلفة، معظم سكانها من الفلاحين الذين يتم استغلالهم بوحشية من قبل ملاك الأرض الذين ساندتهم الدولة القيصرية. في تسعينيات القرن التاسع عشر بدأت الحكومة القيصرية بتشجيع الصناعة الروسية مخافة سقوط الدولة في أيدي الجيوش المتسابقة للدول الأكثر تقدماً، ومن ثم حدث تحالف بين الدولة ورأس المال الأجنبي لبناء الصناعة، وكنتيجة لذلك انبثقت في المركز طبقة عمالية صناعية صغيرة إلا أنها ذات قوة اقتصادية وسياسية.

عكست ثورة ١٩٠٥ الأثر المدوي الذي أحدثته الطبقة العاملة الجديدة على الساحة السياسية في روسيا، بالرغم من ذلك فان الحكومة القيصرية ظلت تسيطر على جيش من جنود الفلاحين، وبالتالي كانت قادرة على قمع الثورة. ولكن في فبراير ١٩١٧ أطاح الجنود أنفسهم تحت ضغط الهزيمة العسكرية والثورات العمالية بالقيصر، وفى أكتوبر ١٩١٧ استطاع البلاشفة انتزاع السلطة ليس بسبب مساندة الطبقة العاملة فقط، ولكن لأنهم كانوا الحزب الوحيد الذي دعي إلى نهاية فورية للحرب، والى تأييد حق الفلاحين في الأرض. وكان الفلاحون قد صادروا الأراضي على أي حال، ولكن بمجرد انتزاع البلاشفة للسلطة أضفوا الشرعية على تلك المصادرات.

لم تستسلم الحكومات الرأسمالية الغربية للثورة الروسية، فقد تم غزو روسيا بما لا يقل عن ٢٢ جيش للإطاحة بالحكومة البلشفية، وظلت البلاد تحت سيطرة الحرب الأهلية بين الجمهورية السوفيتية الجديدة، والجيش الأبيض المضاد للثورة يسانده الغرب لما يقرب من ثلاثة أعوام.

أفنت الحرب والمرض والمجاعة الملايين في تلك السنوات، وكان تأثير الحرب على الصناعة مدمراً، حيث انه بدمار الأسواق والمواد الخام أغلقت المصانع وعاد العمال الذين لم يلحقوا بالجيش الأحمر أو الخدمة العامة إلى قراهم التي أتوا منها، إذ لم يكن هناك طعام في المدن وتحللت الطبقة العاملة الصناعية التي تأسست عليها قوة البلاشفة.

عندما خرج البلاشفة منتصرين من الحرب الأهلية في ١٩٢١، وجدوا أنفسهم في موقف غير مستقر، فقد جعلهم غياب الطبقة العاملة معلقين في الهواء، يديرون آلة الدولة لكنهم يفتقرون إلى القاعدة الاجتماعية، وتحول الفلاحين الذين ساندوهم ضد الجيش الأبيض إلى موقف معاد، كنتيجة لقيام البلاشفة بمصادرة الحبوب لتوفير الغذاء للمدن.

في ربيع ١٩٢١ قدم لينين "السياسة الاقتصادية الجديدة" التي أعادت بدرجة ما السوق الخاصة، كوسيلة لتشجيع الفلاحين لإنتاج المزيد من الغذاء. ومنحت هذه السياسة الحكومة البلشفية فرصة لالتقاط الأنفاس، إلا أنها لم تحل معضلتها الأساسية.

لم يؤمن لينين وتروتسكى إطلاقاً أن الجمهورية السوفيتية الروسية يمكنها أن تنجو بمفردها، فقد توقعا أن تنتشر ثورة أكتوبر كموجة من الثورات في دول الغرب الرأسمالي المتقدمة، واعتقدا بأنه لا يمكن لدولة بمفردها وخصوصاً إذا كانت في تخلف روسيا أن تبنى الاشتراكية، لان ذلك يتطلب اشتراك موارد كل الدول الكبرى.

على نهج هذه الاستراتيجية أسس البلاشفة الأممية الشيوعية (الكومنترن) في ١٩١٩، وكان الهدف منها تنظيم ثورة اشتراكية عالمية، وخلق جمهورية سوفيتية دولية، وللوصول إلى ذلك فقد سعت إلى تأسيس أحزاب شيوعية جديدة في كل أنحاء العالم.

بينت الموجة الثورية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، مدى واقعية استراتيجية البلاشفة، فقد شهدت الأعوام ١٩١٨ – ١٩٢٠ جمهوريات سوفيتية في المجر وبافاريا، وتمردات وصدامات مع البوليس في إنجلترا، واحتلالات مصانع في إيطاليا، إلا أن نجاح الثورة العمالية الروسية لم ينتشر في دول أخرى، والسبب الجوهري في ذلك كان غياب أحزاب ثورية فعالة كالحزب البلشفي.

مع تأسيس الكومنترن كانت اكثر الظروف ملائمة للثورة في أوروبا الغربية والوسطى قد انتهت، فقد أدى إخفاق الحزب الشيوعي الألماني في انتزاع السلطة في أكتوبر ١٩٢٣ إلى إغلاق الأبواب أمام الثورة العالمية، وكانت تلك النهاية ابعد ما تكون عن التي رسمها معظم القادة البلشفيين.

مع وفاة لينين في ١٩٢٤، كان الحزب البلشفي يختلف كثيرا عن تلك المنظمة العمالية، التي كان عليها في ١٩١٧، إذ دمرت السوفييتات الديموقراطية مع هلاك الطبقة العاملة في الحرب الأهلية، الأمر الذي أوقع الحزب الشيوعي للاتحاد السوفيتي – كما يعرف البلاشفة الآن – تحت سيطرة بيروقراطية الموظفين.

وتزعم هذه البيروقراطية ستالين السكرتير العام للحزب، الذي استطاع في السنوات التالية لوفاة لينين هزيمة منافسيه تدريجياً حتى تولى السلطة في ١٩٢٨.

وترجع أهمية ستالين إلى كونه ممثل البيروقراطية الجديدة لحزب الدولة، الذي حكم الاتحاد السوفيتي، إذ فقد هؤلاء الموظفين أي اهتمام بالثورة العالمية، ومثل قائدهم انصب اهتمامهم على مصالح الدولة السوفيتية وعلى أنفسهم كحكام،

وبالتالي فقد ابتكر ستالين ومؤيديه الحاليين نظرية "الاشتراكية في بلد واحد"، لقد تصوروا انه من المكن بناء مجتمع اشتراكي قاصر على الاتحاد السوفيتي وحده، ومن ثم أصبحت مهمة الأحزاب الشيوعية في البلدان الأخرى ليست صنع الثورة، ولكن توسيع نفوذ مصالح الدولة الروسية. وتحولت الفروع الوطنية للكومنترن إلى وكلاء لوزارة الخارجية الروسية.

وهكذا تم التخلي عن الثورة العالمية، ففي الأعوام ما بين ١٩٢٣ – ١٩٣٩ أدت أوامر موسكو إلى إلحاق هزائم مروعة بالأحزاب الشيوعية المحلية، كان أهمها ما حدث في الصين وألمانيا.

شهدت الثورة الصينية ١٩٢٥ – ١٩٢٧ قتال الملايين من العمال والفلاحين ضد القوى الأجنبية، التي كانت تستغل الصين، وضد حلفائهم المحليين، ولكن ستالين في تلهفه لإيجاد دولة جارة صديقة، اصدر تعليماته للحزب الشيوعي الصيني بمساندة الكومينتانج – بقيادة شانج كاى شك – الذي كان يأمل في تأسيس حكومة رأسمالية على الطراز الغربي في الصين، وهو ما تحقق بالفعل بعد انه بمجرد أن حقق الشيوعيون هدفهم، وكسبت الصين الحرب ضد القوى الأجنبية، حيث تحول شانج عليهم وذبح عشرات الآلاف من العمال والفلاحين.

وفى ألمانيا حظي الحزب الشيوعي بتأييد ملايين العمال، بالرغم من سيطرة الحزب الاشتراكي الديموقراطي الإصلاحي على الحركة العمالية، وعندما بدأ الركود الاقتصادي في ١٩٢٩، حدث اندفاع متزايد نحو تأييد النازية،، ورفض الشيوعيون – بناء على تعليمات ستالين – تكوين تحالف مع الاشتراكيين الديموقراطيين لوقف النازية، وبدلاً من ذلك، أطلقوا أن الاشتراكيين الديموقراطيين

ليسوا أسوأ من النازيون، بل ودعوهم بالاشتراكيين الفاشيين. تلك الانقسامات مكنت هتلر من الوصول إلى السلطة في يناير ١٩٣٣، وخضعت أقوى حركة عمالية في العالم للفاشية بتذمر هزيل.

هذه النكبات زايدت من عزلة روسيا عن باقي دول العالم، إذ في مواجهة النظام الرأسمالي العالمي، فان أي حكم اشتراكي يبقى أمام اختيارين، إما السعي للإطاحة به بتشجيع الحركات الثورية في البلدان الأخرى، أو تبنى هذا النظام والتأقلم مع قوانينه.

رفض حكام روسيا الخيار الأول عندما تبنوا نظرية "الاشتراكية في بلد واحد"، وكان منطقهم أن يعملوا كقوة رأسمالية كبرى.

حتى قبل انتصار هتلر كان الاتحاد السوفيتي مهدداً من الغرب الرأسمالي عسكرياً، ولمواجهة هذا التهديد فان الدولة الروسية كانت محتاجة إلى إقامة قوة عسكرية خاصة بها، وبما أن تكنولوجيا الحرب الحديثة تعتمد على الصناعة الثقيلة، فان البيروقراطية السوفيتية بقيادة ستالين عملت على بناء هذه الصناعة الثقيلة من لا شئ، وكما أعلن ستالين: "إن إبطاء سرعة التصنيع يعنى البقاء في الخلف مهزومون .. أننا لا نريد أن نهزم .. أننا خلف الدول المتقدمة بمقدار أربعين عام وعلينا أن نتخطى ذلك في عشر سنوات إما أن نفعل ذلك أو أن يسحقوننا".

منذ عام ١٩٢٨ فصاعداً، انخرطت روسيا ستالين في برنامج للتصنيع القسري، هدفه اللحاق بالغرب. وبمرور عشر سنوات تم الوصول إلى مستوى هائل من الصناعات الثقيلة. إلا أن ثمن هذا التقدم الاقتصادي العظيم دفعته جماهير العمال والفلاحين، لكونهم مرغمين على الاعتماد على مواردهم الخاصة فإنه لم يكن أمام حكام روسيا من أجل التصنيع سوى استغلال العمال. لقد كانوا بحاجة لاستيراد الآلات من الغرب، والوسيلة الوحيدة لتمويل هذه الواردات، كان بيع الحبوب للخارج، إلا أن منتجي الحبوب كانوا الفلاحين الذين عارضوا تسليمها للغرب، لذا فقد أخضع ستالين الزراعة لسيطرة الدولة، بمصادرة الأرض من الفلاحين، وفرض سيطرة الدولة على المزارع الخاضعة للتجميع. وهلك الملايين من جراء ذلك و لازالت الزراعة الروسية تتداوى من آثارها.

حدثت قصة مشابهة للصناعة الروسية، فقد انمحت كل المكاسب التي حققها العمال أثناء الثورة، وتحولت النقابات العمالية إلى أدوات للسلطة، وكانت تساهم في وضع نماذج للرواتب، وكان العمال مضطرون لبذل مجهود اكبر لقاء الأجر الأساسي فقط. أحد الاقتصاديين الروسي ذكر أن الصناعة في الثلاثينات كان يتم تمويلها عن طريق استغلال فج للطبقة العاملة.

بغزو هتلر لروسيا في ١٩٤١ كانت الدولة الروسية قد أصبحت قوة صناعية، بما يكفى لصد الجيوش الألمانية، إلا أن المجتمع الروسي كان قد تغير، فالطبقة العاملة الصناعية المتزايدة لم تكن تسيطر على الاقتصاد اكثر مما كانت تفعل في الغرب. فبالرغم من أن وسائل الإنتاج كانت ملك الدولة بشكل شرعي، إلا أنها في الحقيقة كانت تحت سيطرة بيروقراطية حزب الدولة، إذ تكونت طبقة حاكمة من بقايا السوفييتات.

أن التقدم كان دمويا فستالين – كما قال خليفته نيكيتا خروشوف – كان مسؤولا عن موت ١٢ مليون شخص، من بينهم معظم أعضاء الحزب البلشفي، الذين هلكوا أثناء التطهير العظيم في ١٩٣٦، وملايين الناس قبض عليهم البوليس الستاليني، واختفوا في معسكرات العمل بسيبيريا، ولم يعد معظمهم أبداً.

المذابح مكنت ستالين من التخلص من أي أثر للدولة العمالية التي أنشأت في ١٩١٧، ولكن أي مجتمع حل محل تلك الدولة؟.

بوضوح لقد كان استمرارا للمجتمع الطبقي، فقد تمتعت البيروقراطية الروسية وأسرها بوجود متميز تم سحبه تماماً من العمال، فقد كان لهم مستشفياتهم ومدارسهم الخاصة ومنازلهم المرفهة وأرصدتهم في بنوك سويسرا.

لكن ما الذي أدى إلى انهيار هذه المجتمعات؟

بالرغم من أن مظهرها يبدو مختلفا عن البلدان الرأسمالية، إلا أن هيكلها الأساسي مشابه، لقد عرفنا أن الرأسمالية مرتبطة بالتراكم، بمعنى آخر أن الدول الرأسمالية دائماً ما تعيد استثمار الأرباح في إنتاج أوسع، وهذا ينطبق تماما على الاتحاد السوفيتي، فهدف الإنتاج ليس احتياجات الجماهير، بل أن الموارد تصب دائماً في بناء الصناعة الثقيلة، ويتم التضحية بالاستهلاك لأجل الإنتاج.

ما الذي يدفع الطبقة الحاكمة الروسية لفعل ذلك؟

أن ذلك يحدث لنفس السبب الذي من أجله تمارس الدول الرأسمالية التراكم – من أجل التنافس – فيما عدا انه في حالة روسيا فان المنافسة عسكرية أكثر من كونها اقتصادية. الدولة السوفيتية تقع تحت ضغط مستمر للحفاظ على قوتها العسكرية موازية لتلك التي في الولايات المتحدة، أن هذا يمثل ضغط هائل على اقتصاد يبلغ حجمه نصف حجم الاقتصاد الأمريكي وبإنتاجية أقل، لذا فان ١٥ % من إجمالي الإنتاج الوطني كانت تخصص لنفقات الدفاع، ويتم التضحية بكل شئ آخر من أجل السباق العسكري.

هذا بالضبط نفس التنظيم في الرأسمالية الغربية، فهناك شركات ترغم على إعادة استثمار أرباحها، وإلا فإنها ستجبر على الخروج من اللعبة على يد منافسيها، روسيا كانت مجبرة على التركيز في بناء صناعة ثقيلة، وإلا فإنها ستهزم من قبل أمريكا.

الاختلاف الوحيد يكمن في انه بينما في الرأسمالية الغربية تتنافس الشركات، فان السباق العسكري هو الذي ينشب بين الدول.

أن ما يوجد في روسيا هو رأسمالية الدولة، فالدولة تمتلك الاقتصاد، والبيروقراطية السياسية المركزية، تسيطر على الدولة، هؤلاء هم الطبقة الرأسمالية في روسيا.

من ينتابه شك في ذلك عليه أن يتابع ما حدث في أوروبا في الثلاثين سنة الماضية، فبعد الحرب العالمية الثانية، سيطرت قبضة روسيا العسكرية على أوروبا الشرقية، واستخدمت قوتها العسكرية في تحويل تلك البلدان إلى مجتمعات رأسمالية الدولة.

كانت النتيجة موجات متتابعة من الثورات العمالية ضد الطبقات المحلية الحاكمة ومساندها في موسكو، كما حدث في برلين ١٩٥٣، وبولندا ١٩٧١، و١٩٧٦ و١٩٨٠–١٩٨١، فإذا كانت هذه البلدان اشتراكية بالفعل – تعمل لصالح الطبقة العاملة – فما الذي سيضطر العمال مراراً لتتمرد عليها.

في النهاية فانه من الهام التأكيد على أن انحلال الثورة الروسية لم يكن أمرا حتمياً، كان يمكن للوضع أن يكون مختلفاً، فإذا امتدت الثورة من روسيا إلى الدول الصناعية المتقدمة بعد ١٩١٧، كان سيتم تفادى أهوال حكم ستالين وكانت الطبقة العاملة ستنتزع السلطة.

حتى بعد انحسار الموجة الثورية الأولى كان هناك خيار لسبيل أخير يمكن اتباعه، فقد نادى ليون تروتسكي والمعارضة اليسارية بأن الحزب البلشفي عليه مواصلة التركيز على تشجيع الثورات في الدول الأخرى، إذا تم اتباع تلك النصيحة فان ذلك كان سيحول دون نكبة الصين وألمانيا وكان وجه التاريخ سيصير مختلفا جداً.

ما حدث هو أن المعارضة اليسارية سحقت، وتم طردهم من الحزب وسجنهم أو نفيهم، ومع ذلك فقد ابقوا على سبب الثورة الاشتراكية حياً، لقد عملوا كمذكرين على أن ستالين كان نقيض ماركس ولينين، وان ما أنجزه كان في الواقع تدمير الاشتراكية، وليس تحقيق أحلام هؤلاء الذين صنعوا ثورة ١٩١٧.

الثورة في العالم الثالث

الثورة الروسية هي أول وأعظم ثورات القرن العشرين، والثورات التي تبعتها تمت في معظم الأحيان فيما يعرف الآن بالعالم الثالث، الدول الفقيرة والمتخلفة في أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، أكثر هذه الثورات أهمية ما حدث في الصين وفيتنام وكوبا، قامت كلها بدعوى الاشتراكية فما مدى حقيقة تلك الدعوى؟.

أول ما يجب تذكره هو أن هذه الثورات كانت موجهة ضد استغلال الاستعمار أو شبه الاستعمار، فالصين تم تمزيقها وإذلالها بالقوى الأجنبية في القرن التاسع عشر، وفيتنام كانت مستعمرة فرنسية، وكوبا كانت تحت سيطرة الاستعمار الأمريكي.

الإنجازات العظيمة لثورات العالم الثالث كانت في كونها حركات تحرير وطنية، إذ قامت بطرد المستغلون الأجانب وتحقيق الاستقلال الوطني، وبشكل عام فقد ارتفع مستوى معيشة الشعوب في هذه البلدان كنتيجة لتلك الثورات، من هذه الناحية فان الثورات كانت بلا شك تقدمية، واستحقت مساندة الاشتراكيين في كل مكان. إلا أنها لم تكن ثورات اشتراكية، ولا كانت حكوماتها اشتراكية، يتضح ذلك حين تنظر إلى القائمين بهذه الثورات، والشيء الملفت هو الدور الضئيل الذي لعبته الطبقة العاملة فعلى سبيل المثال كانت الثورة الصينية ١٩٢٥-١٩٢٧ بلا شك ثورة من حيث الدور المركزي الذي لعبته حركة العمال، إلا انه بسبب النصيحة السيئة التي وجهها ستالين للشيوعيين الصينيون، هزمت الثورة ودمرت الحركة العمالية، وصارت القرى ملجأ للشيوعيين الصينيين بعيدا عن المدينة، إذا اتبعوا بقيادة ماوتسى تونج استراتيجية حرب العصابات التي كان أساسها الفلاحين، وبمجرد أن دمر اليابانيون حكومة الكومينتانج لشينج كاى شك (لم يهزموا في الواقع سوى أنفسهم) بمساعدة الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية، استطاعت جيوش فلاحى ماو، استلام زمام

المبادرة، وشنوا هجوما كانت نتيجته سيطرة الشيوعيين على البلاد في ١٩٤٦، لقد تضائل دور الطبقة العاملة المدينية، وتحولت إلى مواقع المشاهدين السلبيين.

الحزب الشيوعي الفيتنامي في نضاله الملحمي ٤٥ عاماً من أجل الاستقلال الوطني، كان معتمداً بشكل مشابه على قوات حرب العصابات الفلاحية.

حركة فيدل كاسترو – ٢٦ يوليو – في كوبا كانت قاعدتها اكثر ضيقاً، إذ تكونت بشكل واسع من مفكري الطبقة الوسطىً ونفس النموذج تكرر في دول أخرى مثل أنجولا، موزمبيق، زيمبابوي، ونيكارجوا، حيث قاد المفكرين جيوشاً عريضة من الفلاحين، فالحكام الاشتراكيين في أثيوبيا ارتقوا سدة الحكم بانقلاب عسكري.

أهمية ذلك تنبع من حقيقة أن الفلاحين طبقة مختلفة تماماً عن الطبقة العاملة، إنهم يميلون إلى كونهم ملاك صغار، فكل أسرة تملك أو تستأجر قطعتها الصغيرة من الأرض وتعمل فيها بمفردها، لذا فانهم معزولين عن بعضهم، ولا يتمتعون بالقوة الجماعية التعاونية التي تميز العمال الصناعيين المنظمين في الإنتاج وفى النقابات العمالية.

يعنى ذلك انه عندما يتمرد الفلاحون – كما فعلوا عبر التاريخ – فإن آفاقهم تميل لأن تكون محدودة جداً فهم يسيطرون على أراضيهم، ويقسمونها بينهم، ومن غير المحتمل أن يساورهم القلق بشأن ما يجرى خارج قريتهم، لذا فإنهم سرعان ما يسقطون أمام السلطة المركزية للدولة.

أن الفلاحين يشكلون حركات وطنية فقط بقيادة طبقة أخرى، أثناء الثورة الفرنسية العظيمة في ١٧٨٩، كانت الرأسمالية هي الطبقة التي استخدمت الفلاحين لتدمير سلطة الملكية والأرستقراطية، وفي روسيا ١٩١٧ كانت الطبقة العاملة، هي التي قادت الفلاحين، عكس ذلك ضعف الطبقة الرأسمالية الروسية، التي كانت معتمدة بدورها على الدولة القيصرية ورأس المال الأجنبي، والتي كانت خائفة جداً من مشاركة الطبقة العاملة في أي نضال ثوري.

في العالم الثالث – منطقة الثورات ضد الاستعمار – فإن كلا من الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة كانتا ضعيفتين، فالرأسماليين كانوا أكثر تعلقاً بالسلطات الاستعمارية من أن يعملوا كقوة مستقلة، والعمال كانوا أقلية بدون تنظيمات طبقية ثورية، إذاً لم يكن العمال ولا الرأسماليين قادرين على قيادة الفلاحين في معركتهم من أجل التحرر من الاستغلال الأجنبي.

هذا الفراغ ملأته الطبقات المتوسطة المتعلمة، فتلك المجموعة من المدرسين والموظفين والمحاميين والصحفيين، كانت مدفوعة من الدولة الاستعمارية بالحلم لتحقيق نفس نموذج أساتذتهم الأجانب، في الوقت نفسه فانهم كانوا مستبعدين عن المواقع التي وضعتهم فيها مؤهلاتهم بسبب احتلال الأجانب لهذه المواقع، سبب هذا الوضع الكثير من الغضب والإذلال الذي دفع الطبقة الوسطى المثقفة إلى النشاط السياسي.

في بعض الأحيان انضمت الطبقة الوسطى للحزب الشيوعي، لكن رجال مثل ماوتسى تونج والفيتنامي هو شي منه، كانوا يعتبرون أنفسهم كوطنيين أولاً، ثم اشتراكيين ثانياً، كان هدفهم الأساسي هو تحقيق الاستقلال الوطني، لقد اعجبوا بروسيا ستالين، لأنها بدت لهم كدولة ناجحة في بناء اقتصاد وطني قوى، وليس لقيامها بأي شئ في صالح سلطة العمال.

انعكست الطموحات الوطنية لقادة الثورات ضد الاستعمار في الحكومات التي وضعوها، فالهيكل الأساسي لها كان نسخة مطابقة لرأسمالية الدولة الروسية، كان النشاط الاقتصادي الأكثر أهمية تحت سيطرة الدولة، بينما كان الحزب يسيطر على الدولة، والسلطة الفعلية كانت في أيدي بيروقراطية سياسية مركزية،ربما تمتع العمال والفلاحين ببعض السلطة على المستوى المحلى، إلا أنه لم يكن لديهم أي سيطرة على الحكومة المركزية أو على إدارات الاقتصاد الوطني.

لفهم الثورات التي قامت ضد الاستعمار، فإنه من الأفضل مقارنتها لا بالثورة الروسية ١٩١٧، بل بالموجة الثورية التي سبقته،ا مثلاً إنجلترا ١٦٤٠، أمريكا ١٧٧٦، وفرنسا ١٧٨٩، تلك الثورات التي أطلق عليها ماركس، أنها ثورات بورجوازية هدفها التخلص من الإقطاع والحكم المطلق وخلق ظروف تمكن الرأسمالية من الازدهار والتطور.

ثورات العالم الثالث كانت أيضا ثورات برجوازية، إلا أنها حدثت في ظروف شديدة الاختلاف، إذ لم يكن هدفها الإطاحة بالإقطاع بل تدمير الاستعمار.

في عالم تسيطر فيه حفنة من القوى الرأسمالية الغربية على الاقتصاد فان ماو، وهو شي منه، وكاسترو والكثيرين ممن حذو حذوهم، سعوا إلى إنشاء دول وطنية قوية ومستقلة، والأسلوب الوحيد لتحقيق مطلبهم كان رأسمالية الدولة، حيث تتركز كل الموارد في أيدي الحكومة.

ولكن إذا كانوا قد حققوا الاستقلال الوطني، فأنهم لم ينجحوا في فصل أنفسهم عن ضغوط الاقتصاد، فالصين تحت حكم ماو سعت للانفصال بشكل أكثر راديكالية من روسيا، إذ قرر الحزب الشيوعي الصيني الاعتماد على موارده فقط، وأهم هذه الموارد كان الصينيون أنفسهم، فالثورة الثقافية في نهاية الستينات، كانت تنوى توجيه طاقة وحماس جماهير العمال خلف هدف بناء

اقتصاد وطني مستقل، إلا أن هذه الاستراتيجية فشلت لنفس الضغوط العسكرية التي أرغمت روسيا ستالين على التصنيع، ومما يثير السخرية، أن التهديد العسكري أتى هذه المرة من رفيقة الصين، الدولة "الاشتراكية" المزعومة روسيا !! ... فقد أرغمت الصدامات المسلحة على الحدود بين روسيا والصين في بواكير ١٩٦٩، القيادة الصينية على التخلي عن الثورة الثقافية.

منذ هذا الوقت هدفت الحكومة الصينية إلى بناء صناعة صينية باستخدام رأس المال والتكنولوجيا الغربية، قادهم ذلك لتشجيع الاستثمار الأجنبي في الصين، ولدفع المنتجات الصينية في السوق العالمية، وبشكل متزايد "صادرات المنسوجات الصينية هي الأسرع نموا في العالم" حتى انه قد تم الإعلان مؤخراً عن أن الصين سوف تبدأ الاستثمار في مشاريع في الخارج، (إذا لم تستطع هزيمتهم لتنضم إليهم!!).

قوة النظام الصيني أثرت أيضاً على حكومات رأسمالية دولة أخرى، فمثلا كوبا تحت حكم كاسترو سعت إلى إنهاء اعتمادها الكلى على صادرات السكر، إلا أن كل ما نجحت في تحقيقه هو جعل روسيا – أكثر من الولايات المتحدة – المستورد الرئيسي لسكرها، ومع اعتمادها الكبير على الإعانات الروسية، فان كاسترو أيضا مدين بشكل بالغ للبنوك الغربية.

أن الهدف من بناء اقتصاديات وطنية مستقلة، تحول إلى حلم بعيد المنال، فكل دولة شاءت أم أبت هي جزء من النظام الرأسمالي العالمي، وخاضعة لضغوطه وهذا كما ينطبق على دول العالم الثالث، التي قامت تحالفاً مع الغرب، فانه ينطبق أيضا على الصين وكوبا وأمثالهم.

فالبرازيل على سبيل المثال كانت المعجزة الاقتصادية العظيمة في الستينيات والسبعينيات، وحتى أثناء أزمة الركود الأولى في فترة انهيار السبعينيات، فإن اقتصادها ظل ينمو بسرعة.

ارتقت العاصمة "ساو باولو" إلى مصاف اكبر المدن الصناعية في أمريكا اللاتينية بعدد سكان يبلغ ٣٠ مليون، ينتجون أكثر مما تنتجه معظم البلدان في القارة، إلا أن تلك المعجزة كانت مؤسسة على اقتراض مبالغ ضخمة من البنوك الغربية، وعندما ضرب العالم الانهيار الثاني في ١٩٨٠، وجدت البرازيل نفسها غارقة في ديون ثقيلة للغرب، بينما تقلصت صادراتها في الأسواق بسبب الركود، وعجزت الدولة عن تسديد ديونها، وكثمن لعدم تسديد البرازيل ديون بمقدار ٩٠ مليار دولار، فان صندوق النقد الدولي والبنوك الغربية طالبت بسياسات بالغة القسوة تضمنت تخفيضات شديدة في المستويات المعيشة للعمال وتقشف واسع النطاق.

ليس هناك دولة يمكنها الهرب من النظام العالمي، والوسيلة الوحيدة للخروج هي ثورة اشتراكية أممية، ومن أكثر البشائر أهمية في الطريق إلي ذلك، نمو الطبقة العاملة الصناعية في العالم الثالث، فعلى سبيل المثال زاد عدد العمال الصناعيين في البرازيل منذ ١٩٦٤ ثلاث أضعاف ليصبح ١٢ مليون عامل، وفى السنوات الأخيرة بدءوا استعراض عضلاتهم على كل شئ، تمثل ذلك في سلسلة من إضرابات سائقو النقل التي أرغمت الحكام العسكريين المرتعدون في البرازيل على تنازلات سياسية كبيرة.

وضع مشابه يمكن وصفه في دول أخرى، مثل كوريا الجنوبية، مصر، الأرجنتين، جنوب إفريقيا، وبوليفيا حيث ستشارك الطبقة العاملة في أي ثورات قادمة في العالم الثالث.

الأحزاب الشيوعية الغربية

إن المثال الروسي لم يكن نموذجاً للعالم الثالث فقط، فثورة ١٩١٧ كانت طموح الملايين من العمال عبر أوروبا، الذين احتشدوا للانضمام للأحزاب الشيوعية بعد تأسيس الكومنترن في ١٩١٩، بالرغم من أن تلك الأحزاب في سنواتها المبكرة كانت منظمات اشتراكية ثورية حقيقية إلا أنها بنهاية العشرينيات، تحولت إلى مؤسسات تابعة للبيروقراطية الروسية، واصبح قادة الحزب الشيوعي في الغرب موظفين لدى موسكو، إذا ما فشلوا في السير على نهج الكرملين في كل حركة، فان مصيرهم هو الفصل والطرد والقتل أحياناً، لقد أدت أوامر ستالين كما رأينا إلى تبنى الأحزاب الشيوعية استراتيجيات أدت بها إلى الهزيمة في الثورة الصينية ١٩٢٥– ١٩٢٧، والى انتصار هتلر في ألمانيا.

في عام ١٩٣٥بعد النكبة الألمانية، تبنى الكومنترن استراتيجية الجبهة الشعبية التي لازالت أساس عمل الأحزاب الشيوعية الغربية حتى اليوم، لقد تم اختيار هذه الاستراتيجية لأسباب خاصة بسياسة روسيا الخارجية، إذ كان ستالين يأمل في إعاقة الغزو النازي الألماني لروسيا عن طريق تحالف مع القوى الاشتراكية "الديمقراطية" في بريطانيا وفرنسا وأمريكا.

الجبهة الشعبية كانت تحمل بذور نهايتها، فالأحزاب الشيوعية كان عليها أن تتحد ضد الفاشية ليس فقط مع الاشتراكيين الديمقراطيين أو حزب العمال البريطاني، ولكن مع الرأسماليين الديمقراطيين الذين عارضوا الفاشية أيضاً، هذه الاستراتيجية أدت إلى التخلي عن هدف الثورة الاشتراكية، فبالنسبة للرأسماليين بالرغم من كونهم ليبراليين إلا انهم سوف يعارضون مصادرة ممتلكاتهم، لذا فان الأحزاب الشيوعية اضطرت بشكل عملي إلى كبح النضالات العمالية، كي تتقى عداء الأحزاب الرأسمالية المشاركة في الجبهة الشعبية.

في فرنسا ضمت الجبهة الشعبية الاشتراكيين والشيوعيين والراديكاليين والحزب الرأسمالي الرئيسي، وعندما وصلت حكومة الجبهة الشعبية بقيادة ليون بلوم إلى الحكم في الانتخابات البرلمانية ١٩٣٦، وجدت نفسها حتى قبل تكوينها في مواجهة موجة من الإضرابات الجماهيرية، واحتلالات المصانع. ومخافة أن يدمر هذا العرض، لقوة الطبقة العاملة الجبهة الشعبية، فان القائد الشيوعي الفرنسي موريس توريز أعلن انه "من الضروري معرفة متى تنهى إضراب ما" تلي ذلك طريق من الانحدار، إذ نفذ بلوم بعض الإصلاحات، إلا انه وجد أن التقدم ابعد من ذلك يتم عرقلته من قبل شركائه الراديكاليين، وأخيراً تخلى عن الحكم وتحول خلفائه تدريجيا إلى اليمين، حيث جاءت انتخابات البرلمان بأغلبية من الجبهة الشعبية في ١٩٣٦، وبالتأييد التام من المصوتين اليساريين لحكومة فيشي الفاشية، بعد هزيمة فرنسا على يد هتلر ١٩٤٠.

أن نتائج استراتيجية الجبهة الشعبية كانت أكثر كارثية في إسبانيا، فعندما قاد الجنرال فرانكو تمردا عسكرياً ضد حكومة الجبهة الشعبية الأسبانية في ١٩٣٦، تم وقفه بثورة العمال والفلاحين، وفى الحرب الأهلية التي تلت ذلك، كان الحليف الرئيسي للحكومة الجمهورية الأسبانية روسيا ستالين، بينما وقفت كل من ألمانيا وإيطاليا الفاشية بالجيش والرجال إلى جانب فرانكو، بالرغم من ذلك كان ستالين خائفا من معادة بريطانيا وفرنسا، لذا فان الحزب الشيوعي الإسباني كرس كل قواه لمنع حدوث الثورة، وإبدال ميليشيات العمال والفلاحين بالجيش النظامي، وإعادة المصانع والمؤسسات لمالكيها، وقتل النشطاء الثوريين. لكن بمجرد أن تم خنق الثورة كان هناك القليل للقتال من أجله، فقد خضعت المناطق الجمهورية الناجية في ١٩٣٩، لجيوش فرانكو.

مذبحة الحرب العالمية الأولى أدت إلى موجة من الأفكار الاشتراكية والثورات العمالية عبر أوروبا، وفي عام ١٩٤٥ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فان موجة مشابهة من الراديكالية عمت أرجاء أوروبا ثانية، فهل يمكن للاشتراكية أن تدرج على جدول الأعمال مرة أخرى ؟؟.

ولكن ستالين حل الكومنترن في ١٩٤٣ ليؤكد لحلفائه الغربيين نواياه المحافظة، وفي بريطانيا والولايات المتحدة كبح الحزب الشيوعي نضال العمال وعارض الإضرابات، بحجة أنها تقوض مجهودات الحرب، وفي كثير من الدول قاد الشيوعيين المقاومة ضد الاحتلال الألماني ومع نهاية الحرب سيطر الشيوعيون على الجيوش الموالية في فرنسا وإيطاليا واليونان وبلجيكا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا، إلا أن ستالين وافق على تقسيم أوروبا مع حلفائه الغربيين، فأوروبا الغربية وافق ستالين على أن يسيطر عليها النفوذ الأمريكي والبريطاني، وأجبرت الأحزاب الشيوعية على مساندة حكومات الحلفاء، فأنضم شيوعيو إيطاليا إلى ائتلاف مع الفاشيين السابقين، والشيوعيون الفرنسيون نزعوا السلاح من مؤيديهم، وانضموا إلى حكومة الجنرال ديجول، فقط في اليونان حيث الاضطهاد الشديد من قبل الحكومة التي يساندها الغرب، أرغم الشيوعيون على نزع السلاح، وفى يوغوسلافيا حيث كان حلفاء تيتو من القوة بما يكفى لتجاهل تعليمات ستالين، لم تكن القصة مختلفة على الإطلاق.

كانت النتيجة أن موجة الراديكالية انتهت إلى لا شئ. في أوروبا الشرقية فرضت دبابات ستالين رأسمالية الدولة، وفى الغرب شاركت الأحزاب الشيوعية في حكومات ائتلافية حتى نشوب الحرب الباردة في ١٩٤٧ – ١٩٤٨، إذ اصبحوا مرغمين على أن يكونوا خارج السلطة حيث بقى معظمهم في صفوف المعارضة.

منذ الحرب الباردة أصبحت الأحزاب الشيوعية الغربية أكثر استقلالية عن موسكو، إذ أصبح الكرملين الآن سلطة عليا، تملك أسلحة نووية هائلة، ويمكنها التعامل على قدم المساواة مع واشنطن بدون مساندتهم، وبالتالي فقد اصبحوا أحزاب إصلاحية تقليدية تسير في طريق البرلمانية للوصول إلى الاشتراكية.

لا تزال استراتيجيتهم هي الجبهة الشعبية، بالرغم من أنها تسمى الآن "جبهة التحالف الديموقراطي"، في السبعينيات أيد الحزب الشيوعي الإيطالي "تسوية تاريخية" مع الحزب الرأسمالي الرئيسي "الديموقراطيون المسيحيون"، بينما نادى الحزب الشيوعي الأسباني بمساندة الملكية والقوات المسلحة. وبنهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات فان الأحزاب الشيوعية الجماهيرية في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا كانت تحظى بتأييد ضئيل، بينما انحدر الحزب الشيوعي البريطاني –الذي عادة ما يكون اصغر بكثير– بشكل مختلف، إذ كان أثناء الحرب العالمية الثانية قادرا على خلق تأثير فعال في النقابات العمالية، ومع بداية الستينيات استخدم هذا التأثير في بناء جبهة حلفاء يسارية في النقابات بأعضاء من حزب العمال، والهدف كان انتخابيا، والفكرة أن الجبهة اليسارية سوف تستحوذ على مواقع في الوظائف النقابية تساعد الحزب في الانتخابات. وضعف هذه الفكرة أنها لم تأخذ في الحسبان البيروقراطية التي يخلقها الموقع في نقابة عمالية، لقد فشلت في إدراك انه حتى أكثر الموظفين يسارية سوف يكون مهيئاً فقط، بسبب طبيعة موقعه للسعي إلى تسويات مع المستخدمين، والى عرقلة بل وتقويض نضالات العمال.

في السنوات الأخيرة وضع الكثير من أعضاء الحزب الشيوعي النهاية النظرية لاستراتيجية الجبهة اليسارية تلك، وانضموا إلى حزب العمال، متخلين عن السياسات الطبقية ومؤيدين "لجبهة التحالف الديموقراطي" ومتقبلين لحزب العمال والليبراليين والاشتراكيين والشيوعيين وحتى المحافظين "التقدميين" أمثال تيد هيث وفرانسيس بايم.

ذلك الانجراف الدائم نحو اليمين، يأتي ضمن مفهوم الجبهة الشعبية، فبمجرد أن تتبنى استراتيجية تدعو للتحالف مع الطبقات التي تتعارض مصالحها مع العمال، مثل الرأسماليين "الديموقراطيين" أو "التقدميين" الذين مصالحهم في الأساس هي الربح، فانك سوف تكون ملزما بأن تحاول كبح النضالات العمالية.

على العكس من ذلك فان الاشتراكية الثورية، تدرك أن الطبقة الوحيدة التي ستناضل من أجل الاشتراكية، والتي تملك إمكانية بناء الاشتراكية، هي الطبقة العاملة.

مركز الدراسات الاشتراكية

٧ شارع مراد . ميدان الجيزة
موقع إليكتروني: www.e-socialists.net
بريد إليكتروني: info@e-socialists.net